الى الدعاة ... حديث في الأدب

بقلم الدكتور بهي الدين زيان

حاولت جاهداً ان اباعد بيني وبين الكتابة في هـذا الموضوع، فلم استطع وتملكني احساس قوي بان الكلمة لا بد ان توجه الى هؤلاء الدعاة الآن .. وفي الميدان الذي نهتم به وهو ميدان الادب .. وانا انظر من الامس واليوم، شرقاً وغرباً في حقول مترامية الاطراف، ينبت فيهـا كثير من الاشجار المورقة، ويظهر فيها كثير من الافراد حول هـذه الاشجار، ليصنعوا فيها ما يشتهون او ما يريدون.. وكل يجد في نفسه قدرة، وينشر من حوله مذهباً او يجد في بعض ما يقال ما يوافق في نفسه هوى .. والكل يصيح، والحقول ما تزال ممتدة تأخذ بالبصر وتملأ الفؤاد ..

ان هذا الحديث الذي نجول فيه اليوم، لا ندعي اننا سوف نأتي فيه بجديد، ولكني اجـد ان النظر الى ميدان الادب طويلاً، والتطلع الى ما فيه طويلاً، والوقوف عند ما قيل فيه كثيراً، كل هـذا يوضح بعض ما يخفى علينا او على الكثيرين ويضع بعض الامور في وضعها الصحيح .. فهو حقل فسيح، والرأي فيه كثير، والعناية به دأب كثير من اصحاب الاقلام في هـذه الايام، ومجلة (الآداب) قد قامت تعلن انها تسعى الى غاية وتهـدف الى غرض وتخدم مذهباً في الادب، تناوله اكثر من قلم في اعدادها المتوالية منذ صدورها الى اليوم. ولا علينا الآن من الوقوف عنـد مذاهب القوم في الأدب ولا عند مدارسه التي ترتقي اليها الاقلام بالبحث او — الدراسة — ولكنني أود ان اخطط هـذا الحقل في سرعة .. فهـو ادب عربي نسج بلغة واحدة هي اللغة العربية منذ ان هيء لبعض هؤلاء العرب ان ينشئوا ادباً في عصور ماضية وقبل الاسلام . وما زال هذا الحقل يتسع حتى عصرنا الحديث، وقد عرفت هذه الآماد الطويلة دعوات في هذا الميدان تتجه الى تقويمه وتقديره وشرحه وبيانه او الى نقده والحديث عن رواده اورجاله في كل عصر، حتى توزع هذا الحقل في بلاد اللغة العربية وفي بلاد تعيش فيها هذه اللغة في الشرق وفي الغرب، في العالم القديم وفي العالم الحديث ..

وكل دعوة وجهت الى هذا الادب في عصوره الطويلة هذه قد ارتبطت بدعـوات اخرى ظهرت في الحياة، اجتماعية او ثقافية او فكرية، وعلى قدر ما تعطي الحياة للاحياء من نفاثاتها على قدر ما اصاب الدعوات التي ظهرت في هذا الميدان — فمن الفلسفة نشأت في ميدان الادب اكثر من فكرة او نظرية او مسألة، ومن الاجتماع ظهر كثير من الافكار والآراء، ومن الفن عامة وجـدنا اكثر من حديث عن الصلة بين هذا الادب وذاك الفن .. وهكذا ألقت الحيـاة من بذورها في ميدان الادب آراء وافكاراً ومسائل شغلت اكثر من اديب وملأت نفس اكثر من دارس، ولا تزال تعمل وتؤثر علينا نحن في هذا الجيل ونجـد من الدعاة اعواناً على النشر ومن الدعاة اهتماماً بالاشارة .. ومن الدعاة اكثر من نداء ..

فامتلأ الحقل بضروب من الاشجار وبكثير من الافراد، وغدا حقل الادب من الحقول التي نجد فيها اكثر من شجرة، ولكل شجرة ظل، وحول كل ظل اناس ! ودعك من هـذا الادب جملة، وانظر الى رجاله والى دعاته اليوم.. وانت تستطيع ان تجد فيهم صاحب الوراثة السلفية وصاحب الوراثـة الحاضرة، وصاحب الفكرة المستقبلة، وتجد بين هؤلاء كثيراً من المخدوعين بهذا الرأي او ذاك، الذاهبين في كل مجال .. وهل نعرض عليك اهم مسألة في الموضوع .. قالوا: الأدب فن وهذا حق، وهو فن يقـوم في بيئة، وهـذا صحيح، ويقوم بـه فرد، وهذا صحيح وينتج اثراً وهذا صحيح — واظن

يناقش الدكتور بهي الدين زيان في هذا المقال آراء الدعاة الى مذاهب معينة في الادب، ويتناول بصورة خاصة دعوة الدكتور عبد الحميد يونس الى الادب الديموقراطي، واعتنـاق مجلة « الآداب » الالتزام في الادب.

ويسر هذه المجلة ان تنشر مقال الدكتور زيان لتفسح مجال النقاش في هذه الموضوعات التي هي من حياتنا الادبية في الصميم. وسنتولى الرد على الكاتب الكريم، فيما يخص دعوة المجلة، في العدد القادم تاركين الرد، في غير هذه الناحية، لمن يعنيهم الامر.

ان هذه هي اوليات الموضوع ، والاسس التي يقوم عليها كل رأي في هـذا الادب سواء عند القدماء ام عند المحدثين ، ولن يختلف انسان في فنية الادب كما انـه لن يختلف انسان في اثر الادب .. غير اننا نقدر ان هذه الاوليات كانت معروفه عند المنشئين في كل عصر .. ولن يطمس من معرفتنا بهـا الا شيء واحـد ، هو غلبة النقد الادبي او بعبارة اخرى كثرة الحديث عن الادب . ويخيل الي هنا ان كثرة الآراء حول الشيء قـد تأخذ منه بعض حقائقه ، او تضيف اليه كثيراً مما ليس فيه .. فاذا فهم هذا الامر ووضحت هذه الاوليات ، فانك تستطيـع ان ترجع بكثير مما يقال عن الادب او اتجاه الادب او مانريده من الادب الى اساسه الاول الذي يقـوم عليه ، وكل حديث يخرج عن هـذا الاساس لا فائدة منه في الادب او في تاريخ الادب وإن افاد في غير هذا الميدان ..

قال الدعاة : ان الادب قديم وحديث وعلى القديم العفاء ، فقد كان لقـوم مضوا ولعصر انقضى ، ولنا عصر وحياة فيجب ان يكون لنا ادب يحمل اسمنا .. وهذه دعوى . وقال الدعاة : ان الحياة قد تطورت وغدا للادب مدلول آخر غير ما كان لدى القدماء فيجب ان يكون لأدبنـا اتجاه آخر .. وهذه دعوى اخرى . وقالوا : ان الادب كان له مفهـوم خاص في العصور الماضية ونحن في عصر حديث فيجب ان يكون لادبنا مفهوم آخر ، وهذه دعوى ثالثة . وقال الدعاة : لنترك ادب الطبقات او ادب الارستقراطية لنكتب ادباً ديموقراطياً وهذه دعوى اخرى .. وقالوا كثـيراً . وكل داعية تجده في اغلب الامر لا يقوم بدعوته الا على انقاض دعوات اخرى يهدمها ما ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، يهاجم ما يسمى الكلاسيكية ليبنى كما يقول واقعية !. ويهاجم المدرسة القديمة لينشىء ادبـاً لمدرسة جديدة .. ويجرد الماضي من كثير من الصفات ليظهر بصفـة جديدة او يخيل انها صفة جديدة ..

ان اكثر هؤلاء الدعاة يفتنون بالدعوة نفسها اكثر من افتتانهم بما تحدثه أو تنتجه ؛ ولهذا وجـدنا حولنا في الأدب العربي كثيراً من الدعوات وقليلاً من الطاقات الانتاجيـة الجديدة ، ولسوء الحظ ان هؤلاء الدعاة قد مثلوا دور المنتجين ووجدنا هذا منذ اكثر من نصف قرن — حـين كان النقاد يمثلون دور الادباء في الانتاج . ومعنى هذا واحد من امرين — اما رغبة في النقد واظهار اتجاهات جديدة تخالف ماهو حاصل، واما قصور في التطبيق. وكلا الامرين له نتيجة عكسية في فهم الأدب الموجود حيث يجـد المنتجون ان طلبات المشترين اكثر من طاقاتهم أو يجد المشترون ان طبيعة المنتجين لا تفي بما يريدون .

ان كل محاولة لفهم هذا الحقل الادبي يجب في رأيي ان تقدر الفرق بين التاريخ والواقع ، وان ما حسب للتاريخ يجب ألا يحسب على الحاضر .. وإلا لسرنا دائماً ونحن في حاجة الى نقد جديد أو انتاج جديد ، وذلك لأن التطور الأدبي الذي يخضع لناموس الحياة العامة لا يمكن ان نربط في عجـلة الماضى حين نقرن بين حاضرنا وماضينا في تقدير هذا التطور — اللهم إلا إذا كان الغرض هو مجرد العرض لبيان مقدار هـذا التطور .. ونحن في هـذا لا نغالي إذا قلنا ان هذا النقد لا يأتي بشيء جديد حيث نعود فنقول: واين الجديد في هذا الانتاج الأدبي ؟

ودعاة الأدب يهدفون دائماً الى بيان شيء واحد في جوهره، وهو ان الادب الذي وجد في العصور الماضية ليس بشيء أو هو قـد أنشيء ليخدم شيئاً مضى زمنه وتغيّر عصره — وهذه هي الجناية الخطيرة على الماضي وعلى الحاضر ؛ وإذا كانت الجناية على الماضي ظاهرة فان هذا الحاضر الذي نهتف له دائماً لا يقوم بنفسه أو من نفسه في هذا الحقل الكبير — وبحسبك ان تعرف ان أداة المعرفة الادبية هي اللغة الادبية التي تحمل هذه المعرفة ثم تصبح أداة للادب بعد ذلك .. والدعاة اليـوم ينسون ان ميراث هذه اللغة كلغة لا يمكن التخلي عنه ، وان امكن ان نضع حداً فاصلاً بين تراثنا الادبي في الماضي وتراثنا الادبي في الحاضر ؛ ومن ثمة فان كل دعوة تقوم على اطراح هذا الميراث اللغوي إنما هي دعـوة يُغالط فيها وان احيطت بمحسنات أو مرغبات كثيرة .. ومن ذا الذي ينشىء اليوم قصة أو قصيدة أو ملحمة أو قطعة نثرية أو رسالة الى صديق دون ان تكون هذه اللغة بميراثها الخاص اداة ؟ قد ينشئها بلغة اخرى ولكنه في هذه الحالة يستخدم ميراث تلك اللغة ايضاً . وآفة هذه الدعوة انما تنبع من اصل ظاهر وهو نسيان الاساس الاول في الأدب باعتبار انه فن يقوم بلغة هي أداته ووسيلته الى البقاء ..

ولك ان تعرض هـذا الادب على انه فن في كل عصر من عصوره فستجد ان هناك اسساً اصيلة ثابتة على مر العصور يقوم بها ، وتكون هي عماده الذي يبرز عليه في هذا الحقل الكبير؛ ومهما انحرفت هذه اللغة أو دخلتها عوامل تحويل أو تغيير فهي

تحفظ من اللغة الاصيلة مادتها ومكنونها وطعمها ولونها ان صح هذا التعبير . والادب الذي نما في هذا الحقل الكبير قد مثل كل لون فيه عصره وحمل ما يستطيع ان يحمل من حياة اهل هذا العصر مهما بالغ الدعاة في المحافظة التي يجدونها في صفات هذا الادب ، وأظن انه ما كانت توجد في عصر من العصور مثل هذه المثل المحفوظة التي يعرض فيها هذا الأدب إذا كانت الدراسة المفردة قد اظهرت هؤلاء على خصائص كل ادب أو كل عصر.. فهل وجد الأدب مانعاً يمنعه من التطور في اي عصر نعرفه ؟؟ ان كان قد وجد هذا المانع فقد وجد الطريق الآخر الذي سلكه هذا الأدب ليعبر عن حياة اهله . وفي تاريخنا الطويل نجد هذه الدروب التي تسرب منها الأدب الى منافذ العالم أو الحياة . فأي جناية تكون على أدب هذه اللغة العربية إذا قلنا انه ادب قد جمد أو انه ادب قد تكرر أو انه ادب طبقة خاصة أو انه صار في اتجاه واحد ..

وهل يصح في عرف الدارسين ان يقاس الأدب في خط واحد ؟ وهل فرضت الحياة على الأدب رسما واحداً ؟ وهل يصح ان نصف عصراً من العصور بوصف واحد ؟ ونقف لنعلن ان هذا الأدب قد جمد أو حافظ أو خمل ؟ مع إن منافذ الحياة كثيرة وهي عند الادباء اكثر ، وكيف نعلل قيام الالوان الاخرى أو ظهورها في وسط هذه الأجواء الجامدة أو المحافظة ؟ أليس في ظهور هذه الألوان تأييد لما نقول من ان حياة الأدب في أي عصر من عصوره لم تجمد أو تحافظ أو تنقطع ؟.

قال الدعاة : ان هذا الأدب القديم قد جمد فيجب ان ينطلق ، مع ان هذا الانطلاق كان في القديم اساساً في بعض العصور ومذهباً لدى بعض الادباء ! وقالوا : ان حياتنا قد تغيرت اوضاعها من حيث منزلة اللغة.. وجروا في هذه الدعوى اشواطاً بعيدة مع ان هذا الأدب الذي يقال عنه انه قديم قد وجد بجانبه وضع آخر للغة التي استخدمها أداة له ، ومع ذلك سارت الحياة الادبية عامة في انطلاقها وفي تحررها منذ اول الامر وما تزال تسير ومن ذا الذي منح الأدباء في العصور الحديثة من الانطلاق ؟.. او هم لم ينطلقوا فعلا ؟ وهل منع القدماء من هذا الانطلاق؟ ومن الذي يقرر هذا او ينفي ذلك؟ ان التاريخ كثيراً ما يظلم بعض جوانب الحياة، والزمن كثير الغبن للماضي .. فهل تحررنا ما يؤيد دعوانا او ينفي ما ندعي انه لم يكن له وجود ؟!

وقال الدعاة: كان الادب في الماضي ارستقراطياً ونحن في عصر الديموقراطية فيجب ان يكون ديموقراطياً.. وانا شخصياً لو كنت من دعاة الديموقراطية الادبية لما ناديت بهذا النداء لان الادب ليس مطلباً يقرره حزب الاغلبية او الحكومة القائمة بقانون ! ولكني كنت اقول دعوا الطبقات الشعبية تنشىء ما تريد بجانب ما تنشئه الطبقات التي تزعمون انها عليا، ثم دعوا الزمن يحكم بين القديم والحديث او بين الارستقراطية والديموقراطية.

وتسأل بجانب هذا عن الارستقراطية فيقولون انها هي التي فرضت الادب حول الحكام والولاة في كل العصور حتى كان الأديب يعيش عالة على هؤلاء .. وفي هذا اعتراف كبير بان الادباء كانوا هم الطبقات الفقيرة الشعبية التي تخدم رزقها او حياتها عن طريق الادب، ولكنهم يصرون على ان الادب الذي انشأته هذه الطبقات الفقيرة إنما هو أدب رسمي لأنه قد تناول ميادين رسمية او نشأ في جو رسمي .. وتقف هذه الكلمة في نفسي : اي ادب ذلك الذي يوصف بانه رسمي . ادب الفقراء الذين غنوا للاغنياء او الولاة فمدحوهم او وصفوهم او اشادوا باعمالهم ؟ أم هو ادب الدواوين الذي كان يُكتب عن لسان الامراء والولاة؟ اما الاولون فما وجدنا لهم في هذا التاريخ الطويل ما يدل على انهم قدمثلوا الارستقراطية الادبية المزعومة ولم يكن لهم في نشأتهم واظهرهم من غير العرب ، او في حياتهم وقد كانوا اجراء او محترفي اجر — ما يتيح لهم هذه الارستقراطية الادبية . ومن من الشعراء الذين نعرفهم كان في فنه ارستقراطياً او مثل هذا الدور الارستقراطي في فنه ؟ والرسميون الذين ينعتون بهذا الوصف هل كان هذا ميزة لهم ام هو امر قد فرضه الموضوع الذي يتحدثون فيه ؟ ومن منع الادباء في القديم والحديث ان يتحدثوا للرؤساء او الولاة ؟ وفي القديم والحديث يوجد هؤلاء الادباء لأن الحياة هي التي توجدهم وتحتم ظروفها على هؤلاء وهؤلاء ان ينشأ لهم ادب... ادب له لون وصورة وموضوع؛ ومع هذا فانه لون من الادب ومن الفن لن تبخل به الانسانية، كما انها لن تبخل بالادب الذي يتناول هؤلاء الولاة او هؤلاء الحكام !

ألم أقل ان ميدان الادب حقل واسع فيه كثير من الاشجار التي انبتتها الطبيعة وعاش على كل شجرة اناس من الناس ؟... من الذي يمنع المدح فناً او أدبا في أي مجتمع وجد او يوجد

— البقية على الصفحة ٧٧ —

حديث في الادب

— البقية من الصفحة ١٥ —

ما دام هذا المدح تصويراً أو فناً ؟.. قالوا انه لون من الادب قد اشاع النفاق عند الناس وهو لون انبتته ضرورة اجتماعية سابقة وخدمته الطبقية في المجتمع القديم ؛ قال الدعاة هذا وعلى لسانهم يجري القول بان المجتمعات الشعبية الحديثة لم تخل من هذا اللون من الأدب بجانب ألوان اخرى يقال انها شعبية. فلم يحرم القديم ويحلل الحديث ؟ ولنفرض ان اوسع صورة للمجتمع الشعبي هي في المجتمع الشيوعي فهل قال احد انه قد خلا من ألوان المدح او صور المدح الوصفية وهل يعيش هذا المجتمع بدون حكام او رؤساء او حتى بدون نفاق ؟ . .

ان اكثر هؤلاء الدعاة يؤخذون بالأدنى فيما ينظمون من اقوال ، مع ان هذا الحقل الواسع قد عرف من قبل وفي ازهى صوره وانضرها هذه الألوان الأدبية وصورها وفي تصويره لها نجد حلاً لمثل ذلك الاشكال .. انهم قد وهموا ان الميزان اللغوي قد اضطرب في العصر الحديث فوجد التمهيد للآداب الديموقراطية بينما وجدت الأرستقراطية او الكلاسيكية قديماً كما يقولون .. مع اننا اذا عرضنا صورة المجتمع اللغوي الأول في العصر الجاهلي فاننا نجد هذه الألوان معروضة عند طبقات الأدباء او في ألوان الفن الأدبي المختلفة وهو مجتمع لم يكن هناك من يتهم او يوجه اليه الاتهام بهذه الأرستقراطية او هذه الكلاسيكية . ولعصور بقي حال هؤلاء الشعراء الجاهليين منذ امرىء القيس الى عهد حسان بن ثابت . سيقولون انهم ارستقراطيون فناً محافظون طريقة وهم كلاسيكيون باختصار ! إذاً فأين التجديدية في عصرهم ان كانوا هم على ما تصفون ، هل ضاعت ؟ ام تختفي الآن ؟ . لقد كان فيهم المجددون مثل اولهم امرىء القيس حيث عدوا له اختراعات او تجديدات على نظام القصيدة وفي موضوعها ومع ذلك — فقد كان هذا الفن هو معرض المجتمع العربي في ذلك الوقت ، تعرض هذه اللوحات الفنية لامرىء القيس او لغيره في اعمر بيوتهم واشهرها كما نصنع اليوم في معارض الفن التي نقيمها في اسابيع او اعوام ؟ . . . فهل قال المجتمع العربي القديم اين التجديد يا امرأ القيس او يا نابغة او يا اعشى ؟ ام كانوا يجدون في هذا الأدب صورة الحياة الأدبية التي يرون او يتمثلون — تحمل مقومات الفن في نظرهم ومفهوم الأدب عندهم كما نطلب نحن اليوم من شعرائنا ان يكونوا معبرين عن حياتنا او عن عصرهم الذي يعيشون فيه ؟.

قال الدعاة لقد كان هذا الأدب كلاسيكياً ونقول حاشا ان يكون هذا الوهم صادقاً ! فاننا لم نجد فيه آية على هذه الكلاسيكية ؛ إنما الكلاسيكية صفة قد خلعها الحاضر على الماضي كما نقول عن اجدادنا رحمهم الله بعد ان ماتوا ولكن في الدعاء عليهم لفت الى حالهم أو كما نقول عن ثورة حدثت في القرن الماضي انها الثورة الماضية مع انه مفهوم انها ثورة ماضية وهكذا كان منشأ كلمة كلاسيكية وقديم من صنع المحدثين او الخلف ، وسيقول ابناؤنا في الغد عنا اننا كنا من ابناء الماضي أو اننا محافظون قدماء .. وانتصار هؤلاء الدعاة على هذا ليس إلا انتصاراً للزمن وحده ، وكلمة الزمن في هذا المجال عامل لفظي لغوي ومن الاسف ان يكون هذا اللفظ « الماضي » اساساً لفهم التاريخ ولكن هكذا تصنع اللغة احياناً من الالفاظ ما يخفي علينا المعالم الواضحة ..

لقد قلت ان اللغة قد وضعت هذه المشكلة عند بعض الناس فجعلت من الماضي قديماً ومن الحاضر حديثاً . واتبع هذا بعضهم بدعاوى كثيرة عن حاضر الأدب وكيف يكون ؛ ومن الواضح ان اظهر مسألة تقوم عليها هذه المجلة هي مسألة « الالتزام في الأدب » وقد بين رئيس التحرير طريقة هذا الالتزام ، كما اجمل العوامل التي دفعت الى تبني هذه الفكرة ؛ والالتزام في رأيي مثل كثير من الاتجاهات الحديثة امر قديم عرفته الآداب أو الادباء وإن لم يكن لديهم هذا الاسم أو هذا التوسع في شرحه ، ولكن جدة اللفظ قد صنعت مذهباً على رأي المحدثين كما ان جدة الالفاظ قد صنعت اكثر من مذهب وهدمت ادباً على رأي المحدثين ايضاً .. ومن غريب الامر ان تجد المعارك على صفحات نفس هذه المجلة الجديدة في دعوتها تثور حول القديم والحديث ، ويختلف اغلب كتاب هذه المجلة في الرأي أو في التقدير ، حتى بالنسبة الى الآثار الماضية — وشغلت المجلة صفحات من كل عدد في مناقشات حول مدلول الالفاظ مرة أو حول تقدير الآثار الادبية مرة اخرى ، ويختلف ناقدان حول تقدير الشعر العربي القديم ويزول هذا الخلاف ثم ينتهيان الى رأي واحد هو ان في بعض القديم حياة — وهذا إقرار بصلاحيته حتى في مجال الدعوة الالتزامية ، ومعنى هذا ان حقل هذا الادب الحديث لم ينكر العناصر القديمة أو الاشجار التي نبتت

منذ الف عام فوجد فيها الظل الذي تريده الانسانية في بعض جوانب حياتها وكان الجديد بجانبه مكملاً لهذا الظل أو اشجاراً اخرى تغرس بجانب تلك الاشجار في هذا الحقل الواسع..

ومن حسن الحظ انني اعرف بعض شؤون الفلاحة، واقضي كثيراً من الاوقات بين ما يذكرني بها ولهذا اكثر من الالتفات الى الاشجار الادبية أو إلى الحقل الذي يجمع بينها ولا أجد فارقاً كبيراً بين حقل الادب والبستان الذي يخلق على الطبيعة. وفي دعوات الادباء المحدثين كثير مما يذكرني بالدعوات التي تثار لاصلاح البساتين او تطورها، فهناك تربية نباتات وايجاد سلالات جديدة من التوليد أو التهجين وهناك عمليات انتخاب، وهناك استيراد نباتات جديدة من بلاد اخرى واقلمتها، وهناك نباتات طفيلية ثم هناك نباتات معمرة في سلالاتها لم تتغير بعد.. وكل هذه الصنوف تجد دعاة يشيدون بجمالها أو فائدتها وكذلك الحال في هذا الحقل الادبي: لم أجد احداً الا ويشيد بالدعوة التي يقوم بها وكأنها هي الدعوة التي تغير وجه التاريخ أو هي الدعوة الوحيدة الجديرة بالنظر والتأييد، وهكذا لم نجد احداً يشيد بالنباتات الاخرى التي تعيش في نفس الحقل.. مع ان الحقل لم يرفض نباتاً واحداً وان كل نبات يجد من يستظل تحته او يتمتع به أو يدين بجماله وفائدته! اليس هذا هو حال الادب اليوم وفي الامس وفي الغد؟ ألم تكن هذه هي تجربة القدماء من أجدادنا في العصور الماضية؟ ألم نجد عندهم هذه الألوان من الآداب او هذه الصنوف من النباتات؟

إن نظرة واحدة الى يوم الاسلام وهو يعتبر عصر نهضة واقعية تؤيد ما نقول. ألم يوجد ادب ديني قبل القرآن الكريم ثم فيه؟ ألم يوجد ادب شهري بالشعر الجاهلي والشعر المعاصر في الاسلام؟ ألم توجد خطابة في العصر الجاهلي والاسلامي؟ ألم توجد كتابة ادبية؟ كل هذا قد وجد ولم تخل الحياة من هذه الالوان أو من غيرها. ومع هذا، فلم يمت لا الشعر ولا الخطابة ولا الكتابة.. وكان الادب القرآني الديني جديداً من غير شك ولكنه لحسن الحظ وجدت اصوله الادبية في نفس البيئة العربية فلم يعد غريباً على هؤلاء العرب؟ وهو كذلك لم يمت ما عداه من ألوان الادب كما انه لم يكن هو اللون الوحيد الرائج فيما بعد.

وجربت الحياة العربية تجارب اخرى في ميدان الأدب، وخذ مثلاً لذلك العصر العباسي: وجد فيه ادب فني تصويري طبيعي وأدب فلسفي وأدب حماسي وأدب جنسي وأدب قصصي.. الخ. ومعنى ذلك ان الحياة لم تنفر من لون من هذه الالوان بل وجد من أطهر الناس وأتقاهم من كان يشارك الاستمتاع باكثر من لون واحد. وهكذا نجد ان هذه الالوان الادبية انما هي الحياة الكاملة وكل نشاط يصيب لوناً من هذه الالوان لفترة من الفترات ولكنه لم يغير من جوهر المسألة في شيء. أليس في هذا رد على ما يقال من ان الادب الذي قيل في العصور الماضية كان أدباً رسمياً؟ ألا نعرف ان اكثر الآداب الشعبية الخليعة قد قيلت في قصور الولاة والحكام؟ ومن الذي ينكر ان مجلس الامراء كان يجمع بين الفقهاء المتزمتين والخلعاء المجان كل قد وجد باباً ينفذ اليه منه؟. بل من ينكر ان هذا المجلس الذي كان يعقده الامير كان يحوي كل ممثل لطائفة او طبقة من الناس؟ سيقول الدعاة ان كل هذه الالوان ارستقراطية او شعبية قد وجهت لخدمة ذلك الوالي او ذلك الامير في ظل هذا العهد الاقطاعي ولم يحفل احد بالشعب او الطبقات الشعبية او يتحدث عن مشاكلهم وآلامهم؟ ونحن نقول: وهذا امر منكر لان احدا لا يستطيع ان يقول ان كل ألوان الادب قد وجدت في خدمة الولاة والامراء ولم تكن في نشأتها ارستقراطية قد نشأت لطبقة خاصة حتى الشعر والخطابة أو الكتابة أو القصة، وان كل ما ظهر انه قد وجه هذه الوجهة كان عند افراد معدودين وفي ظروف خاصة لا يمكن ان يقال على وصف تاريخ الادب أو وصف ادب عصر من العصور..

انني لا أدافع عن القديم... ولم أنشىء هذا الحديث من اجل هذا الدفاع ولكني اتحدث الى رواد الادب الذين يعيشون معنا في هذا العصر ويشاركون في الحياة كما نشارك احياء لهم رأيهم وفكرتهم وتقديرهم، ولكنني فقط اختلف معهم في تقدير الموازين وضبط الرأي وحكم التاريخ، وارجو ان تكون امامنا طريق التقدم واضحة ظاهرة.

القاهرة — **بهي الدين زيان**

مَطبَعَة دار الكتب

للطباعة الفنية والجرائد والمجلات

تجليد فني حديث للكتب والدفاتر التجارية

بناية العازارية الغربية — الطابق الاول تحت الارض